يثير فينا مشاعر مختلفة نحو أنواع السلوك فنمتدح بعضها ونستهجن الآخر وفقًا لطبيعة هذا السلوك.

غير أن هذا القانون الأخلاقي المنطبع فينا لا يكفي وحده ليكون معياراً لهداية البشر وتوجيههم، لأن هناك أموراً أخرى تؤثر فينا كالعادة، والوراثة، وأثر البيئة، والمصالح المباشرة مما يجعلها تفسد تلك الفطرية التلقائية في نفوسنا، من أجل هذا بعث الله سبحانه وتعالى الرسل والأنبياء ملهمين بالوحي الرباني توقظ الضمائر، وتزيل الغشاوة عن النفوس مبينة المثل الأعلى الذي نتجه إليه.

وينتقل المؤلف إلى حقيقة مهمة هي: أنه لا أخلاق بدون عقيدة، والعقيدة تتصل بالأخلاق ذاتها، ومعناها الإيمان بالحقيقة الأخلاقية حقيقة قائمة بذاتها «تسمو» على الغرض، و«تفرض» نفسها عليه بغض النظر عن أهوائه ونزعاته ومصالحه ورغباته، وهذا سر ما نجده لدى المؤمن الذي يتعرف على هذا النداء الداخلي، على صوت ربه، ويتمثل الرسالة السماوية بكل توجيهاتها فيتولد عند الإنسان المؤمن عرف «الالتزام الخلقي» بشريعة الله سبحانه وتعالى، فيلتزم بأوامره، ويجتنب نواهيه في طريقة واضحة لا هي «الخضوع المطلق» الذي يسلب الإرادة، ولا هي «الفوضى» التي لا تعرف الحدود.

هذا عن فكرة الالتزام عند المسلم، تليها فكرة «المسئولية» وهذه المسئولية كما أقرها القرآن الكريم تتعلق بالشخصية الإنسانية في معناها الكامل، فالمسئول، حسب الشريعة الإسلامية، هو: الشخص البالغ العاقل الذي بلغته قواعد الدين بشأن التكاليف وكان واعيا لها أثناء سلوكه، وهو مسئول عن أفعاله الخاصة الشعورية والإرادية والتي عقد النية عليها، وهكذا تنتفي فكرة تحويل فضل عمل أو جزائه من شخص لآخر، وتنتفي فكرة المسئولية الوراثية أو نحوها، ولهذا يتحمل الإنسان مسئولية محددة به، ترجع إلى اختياره الذاتي الذي ينبع من داخل نفسه، ولهذا يهتم القرآن الكريم ببيان موقع «النية» وراء العمل، وأن يكون الهدف للعمل هو ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى.

وقد بين المؤلف الدكتور محمد عبدالله دراز، في كتابه الذي بين أيدينا (دستور